مكتبة البنين
قسم الدوريات

حولية كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

غير مصرح بإعارتها من المكتبة

العدد الأول
١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

نظريات ابن جني في دلالة الألفاظ وموقف المحدثين

دكتور أمين محمد فاخر

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية

لم تكن دراسة اللغة عند علمائنا العرب القدامى قاصرة على ذكر بعض القواعد في النحو والصرف والبلاغة وغيرها من العلوم اللغوية دون تعمق فيما تحويه العربية من أسرار وما تنطوى عليه دراستها من نتائج ، وإنما كان للمتقدمين في هذه الدراسات اللغوية نظريات مبتكرة أتاحت لمن يليهم من العلماء دراستها ، والتعمق فيها ، والإتيان بها على صورة مكتملة ، بحيث يمكن للباحثين من بعدهم تطبيق هذه النظريات في كثير من النواحى اللغوية .

فمن ينظر مثلاً إلى مؤلفات العالم العربي الكبير : الخليل بن أحمد (١٠٠ — ١٧٥ هـ) وأهمها كتاب العين ، أو إلى الكتاب لتلميذه إمام النحاة سيبويه ، أو إلى غيرها من مؤلفات أئمة اللغة المتقدمين من علماء العربية فإنه يستطيع استخراج كثير من هذه النظريات اللغوية الهامة .

ولقد فطن كثير من علماء اللغة في القرن الرابع الهجرى إلى ما أتى به هؤلاء الأئمة السابقون من عبارات ومسائل لغوية هامة ، وتعمقوا فى دراستها . واستطاعوا في النهاية أن يخرجوا لنا من هذه الدراسة الواعية المتعمقة كثيراً من النظريات اللغوية التي يمكن أن تتخذ أصلاً في كثير من نواحى اللغة ، وخاصة ما يتعلق منها بالألفاظ ودلالتها .

ومن أبرز علماء هذا القرن عالمان جليلان هما أحمد بن فارس الرازى (ت ٣٩٥ هـ) ، وأبو الفتح عثمان بن جنى (ت ٣٩٢ هـ) . وقد ألف كل منهما كتاباً يعد مفخرة من مفاخر التأليف في الدراسات اللغوية بوجه عام ، وفى فقه اللغة بوجه خاص . فأما ابن فارس فقد ألف كتابه : « الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها » وضمنه كثيراً من البحوث الجليلة فى فقه اللغة ، ووقف فيه على كثير من خصائص العربية ومميزاتها ، وأما ابن جنى

فقد ألف كتابه « الخصائص » الذى اشتمل على كثير مما تحويه العربية من أسرار ، وقد اتجه فيه اتجاهاً يختلف عمن سبقه من العلماء في دراساتهم اللغوية ، ويؤكد ابن جنى هذا حين يتحدث عن كتابه فيقول : « ليس غرضنا فيه الرفع ، والنصب ، والجر ، والجزم ، لأن هذا أمر فرغ فى أكثر الكتب المصنفة فيه منه ، وإنما هذا الكتاب مبنى على إثارة معادن المعانى ، وتقرير حال الأوضاع والمبادى ، وكيف سرت أحكامها في الأحنـــاء والحواشى » (١) . ويقول في موضع آخر منه : « هذا الكتاب ليس مبنياً على حديث وجوه الإعراب ، وإنما هو مقام القول على أوائل أصول هذا الكلام ، وكيف بدىء وإلام نحى ، وهو كتاب يتساهم ذوو النظر من المتكلمين ، والفقهاء ، والمتفلسفين ، والنحاة ، والكتاب ، والمتأدبين التأمل له ، والبحث عن مستودعه ، فقد وجب أن يخاطب كل إنسان منهم بما يعتاده ، ويأنس به ، ليكون له سهم منه ، وحصة فيه » (٢) .

ومن أهم النظريات اللغوية التي أودعها ابن جنى هذا الكتاب تلك التي تبحث في العلاقة بين اللفظ والمعنى ، أو بين اللفظ وما يدل عليه . وسوف نذكر منها هنا أربع نظريات نتحدث عنها وعن آثارها في اللغة ، وموقف علماء اللغة المحدثين منها .

١ ــ النظرية الأولى : « تلاقى المعـــاني على اختلاف الأُصول والمبـــاني » :

وهذه التسمية لابن جنى ، وقد جعل ذلك باباً من أبواب كتابه الخصائص بدأه بقوله : « هذا فصل من العربية حسن كثير المنفعة ، قوى الدلالة على شرف هذه اللغة ، وذلك أن تجد للمعنى الواحد أسماء كثيرة فتبحث عن أصل كل اسم منها ، فتجده مفضى المعنى إلى معنى صاحبه » (٣) .

ويقصد ابن جنى بذلك الألفاظ المترادفة التي هي مختلفة في اللفظ ولكنها متحدة المعنى ، مثل العضب ، والحسام ، والباتر ، والصارم . . . فهذه ألفاظ مختلفة في مبناها وفي أصولها حيث إن حروف كل كلمة منها غير حروف الأخرى ، ومع ذلك فهي تدل على معنى واحد هو السيف المعروف .

---

(١) الخصائص ٢/٣٢ .
(٢) الخصائص ٢/٦٧ .
(٣) الخصائص ٢/١١٣ .

وتفيد النظرية اللغوية التي نحن بصدد الحديث عنها أن مثل هذه الألفاظ المختلفة ، والتي تدل على معنى عـــام واحد لو أرجعنا كل لفظ منها إلى معناه في أصل وضع اللغة لرأيناه قريباً من اللفظ الآخر في معناه ، أو مفضياً إليه ، أو متحداً معه في المعنى .

وقد ضرب ابن جنى لذلك أمثلة مختلفة لتأكيد هذه النظرية . من ذلك :

الخليقة ، والطبيعة ، والنحيتة ، والغريزة ، والنقيبة ، والضريبة ، والنحيزة ، والسجية ، والطريقة ، والسجيحة ، والسليقة .

فهذة الكلمات من أصول مختلفة ، وأبنية متباينة ، ولكن معانيها متلاقية .

فالخليقة من (خ ل ق) . والطبيعة من (ط ب ع) . والنحيتة من (ن ح ت) ، والغريزة من (غ ر ز) ، والنقيبة من (ن ق ب) ، والضريبة من (ض ر ب) ، والنحيزة من (ن ح ز) ، والسجية من (س ج و) ، والطريقة من (ط ر ق) ، والسجيحة من (س ج ح) ، والسليقة من (س ل ق) .

ومن يرجع إلى المعاجم اللغوية يجد أن معاني هذه الكلمات أو هذه الأُصول متلاقية بعضها مع بعض . فكلمة (الخليقة) : فعيلة من خلق الإ نسان الذى هو فُعُل من خلَقتُ الشيء ، أى ملّسته ، ومنه صخرة خلقاء للملساء ، أى بينة الخلق ليس فيها وصم ولا كسر(١)، وخلق الإ نسان سجيته ، لأن صاحبه قُدِّر عليه ، وفلان خليق بكذا ، وأخلق به ، أى ما أخلقه ، أى هو ممن يقدر منه ذلك (٢) .

و (الطبيعة) : من طبعت الشيء ، أى قررته على أمر ثبت عليه ، كما يطبع الشيء كالدرهم والدينار فتلزمه أشكاله ولا تفارقه . والطبع : السجية التي جبل عليها الإ نسان ، والطبيعة مثله (٣) ، ومن ذلك أيضاً طبع السيف والدرهم (٤) .

و (النحيتة) : فعيلة من نحت الشيء ، أى ملّسته وقررته على ما أردته منه ، فهي كالخليقة . والنحيتة : الطبيعة ، يريدون الحالة التي نحت عليها الإ نسان ، كالغريزة التي

(١) الصحاح للجوهرى ٣٦٦/١ .
(٢) مقاييس اللغة لابن فارس ٢١٤/٢ .
(٣) القاموس المحيط ٦٠/٣ .
(٤) لسان العرب ١٠٢/١٠ .

غرز عليها الإنسان (١) .

و (الغريزة) : فعيلة من غرزت ، ويقال لها طبيعة ، لأن طبع الدرهم ونحوه ضرب من وسمه وتغريزه بالآلة التي تثبت عليها الصورة ، وذلك استكراه له ، وغمز عليه كالطبع . والطبيعة غريزة ، كأنها شيء غرز في الإنسان (٢) .

و (النقيبة) : فعيلة من نقبت الشيء ، وهو يشبه الغريزة ، يقال : فلان ميمون النقيبة ، إذا كان مبارك النفس (٣) .

و (الضريبة) : فعيلة من ضربت الشيء أي صنعته ، يقال : هذا من ضرب فلان ، أي صيغته لأنه إذا صاغ شيئاً فقد ضربه ، ويقال : درهم ضرب (وصف بالمصدر) . والضريب : المثل ، كأنهما ضُرِبا ضرباً واحداً ، وصيغا صياغة واحدة . ويقال للسجية والطبيعة : الضريبة كأن الإنسان قد ضرب عليها ضرباً وصيغ صياغة ، تقول : فلان كريم الضريبة ولئيم الضريبة (٤) .

و (النحيزة) : فعيلة من نحزت الشيء ، أي دققته . والمنحاز : شيء يدق فيه الأشياء وهو الهاون . ويقولون : النحيزة : طبيعة الإنسان ، وهي على معنى التشبيه ، وإنما يراد بها الحال التي كأنه نسج عليها ، فيقولون : هو ضعيف النحيزة ، أي هذه الحال منه ضعيفة (٥) .

و (السجية) : فعيلة من سجا يسجو ، إذا سكن وأطبق ودام . يقال : سجا الليل ، إذا ادلهم وسكن ، ومنه قوله تعالى : (والليـــل إذا سجى) (٦) . والسجية : الخلق والطبيعة (٧) وذلك أن خلق الإنسان أمر قد سكن إليه واستقر عليه ، ألا تراهم يقولون في مدح الرجل : فلان يرجع إلى مروءة ، ويأوى إلى ثقة ، لأنه إنما يأوى إلى المحل والمنزل ونحوهما إذا أراد السكون (٨) .

و (الطريقة) : فعيلة من طرقت الشيء ، أي وطأته وذللته ، وهذا هو معنى ضربته

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري ٤٤٢/٤ .
(٢) المقاييس ٤١٦/٤ .
(٣) الصحاح ٥٩٨/٢ .
(٤) انظر في ذلك الصحاح ٨/٢ والمقاييس ٣٩٨/٣ .
(٥) المقاييس ٤٠١/٥ .
(٦) الآية ٢ من سورة الضحى .
(٧) انظر الصحاح ٥٦٩/١ والمقاييس ١٣٧/٣ .
(٨) الخصائص ١١٥/٢ .

ونقبته وغرزته ونحته ، فهذه كلها قريبة في المعنى بعضها من بعض ، وهي كما قال ابن جنى : رياضات وتدريب ، واعتمادات وتهذيب .

و (السجيحة) : فعيلة من سجح خلقه ، أى استقام ، ووجه أسجح ، أى مستقيم الصورة ، وهذا من قولهم : تنـــح عن سجح الطريق ، أى عن جادته ومستقيمه (١) ، والسجيحة : الطبيعة ، يقال ـ بنى القوم بيوتهم على سجح واحد ، وعلى سجيحة واحدة ، أى على قدر واحد (٢) . يقول ابن جنى في ذلك : « وذلك أن الطبيعة قـــد قرت واطمأنت فسجحت وتذللت ، وليس على الإنسان من طبعه كلفة ، وإنما الكلفة فيما يتعاطاه ويتجشمه » (٣) .

و(السليقة) : بمعنى الطبيعة ، يقال : فلان يتكلم بالسليقة ، أى بطبعه لا عن تعلم (٤) ، ووضح ابن جنى علاقتها بالنحيته حين ذكر أن « السليق » : ما تحات من صغار الشجر . . . وذلك أنه إذا تحات لان وزالت شدته ، والحت كالنحت ، وهما في غاية القرب ، ومنه قول الله سبحانه : « سلقوكم بألسنة حـــداد » (٥) ، أى نالوا منكم ، وهذا هو نفس المعنى في الشيء المنحوت المحتوت ، ألا تراهم يقولون : فلان كريم النجار والنّجْر ، أى الأصل. والنجر والنحت والحت والضرب والدق والنحز والطبع والخلق والغرز والسلق كله التمرين على الشيء وتليين القوى ليصحب وينجذب » (٦) .

فكل هذه المعاني الأصلية السابقة يؤدى بعضها إلى بعض ، أو يتلاقي بعضها مع بعض ، ولكن الألفاظ قد استعملت في معنى واحد أحيانا ــ كما رأينا ــ حتى اعتبرت من المترادفات.

وقد ضرب ابن جنى أمثلة أخرى لهذه النظرية التي تكون فيها معاني الكلمات المترادفة في أصل وضعها مؤدية بعضها إلى بعض .

من ذلك (المِسْك) من الطيب ، و (الصوار) للقطعة من المسك . فالأول من (مسك) والثاني من (صور) الدالة على معنى الميل والانعطاف ، ومنـــه قوله تعالى : « فخذ أربعة من الطـــير فصرهن إليك » (٧) ، أى وجههن . يقال : صر إلىّ وصر وجهك إلىّ ، أى أقبل علىّ (٨) ، و (صوار) فُعَال من صاره يصوره ، إذا أماله وعطفه وثناه ، وإنمـــا

(١) المقاييس ١٢٢/٣ .
(٢) لسان العرب ٣٠٤/٣ .
(٣) الخصائص ١١٦/٢ .
(٤) الصحاح ٦٠٥/١ .
(٥) آية ١٩ من سورة الأحزاب .
(٦) الخصائص ١١٧/٢ .
(٧) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة .
(٨) الصحاح ٧٤٢/١ .

قيل له ذلك لأنه يجذب حاسة من يشمه إليه . وكذلك نجد أيضاً معنى المسك ، وذلك أنه (فِعْل) من أمسكت الشيء ، كأنه لطيب رائحته يمسك الحاسة عليه ، ولا يعدل بها صاحبها عنه . . . فقولهم إذا مسك يلاقي معناه معنى الصوار ، وإن كانا من أصلين مختلفين وبناءين متباينين(١) .

وينبغي هنا أن نلاحظ أن ابن جنى قد يكون مبالغاً في هذا المثال ، فقد لاحظت من الرجوع إلى المعاجم أمرين : أولهما أن كثيراً من المعاجم لم تذكر الصوار بمعنى القطعة من المسك كما ذكر ابن جنى ، وإنما ذكرت أن الصوار وعاء المسك(٢) ، أو أنه ريح المسك (٣) ، وليس المسك نفسه . وثانيهما أن بعض المعاجم التي تعنى بذكر المعرب قد ذكرت أن المسك من الطيب فارسى معرب ، وكانت العرب تسميه المشموم (٤) . وعلى هذا لا تصح المقارنة بين الكلمتين : (صوار ومسك) لأن إحداهما غير عربية أصيلة ، بل معربة .

ومما ذكره ابن جنى من الأمثلة على هذه النظرية قولهم : صبى ، وطفل ، وغلام ، وجارية . فتلك كلمات أُصولها مختلفة : لأنها من (ص.ب.و) و (ط.ف.ل) و (غ.ل.م) و (ج.ر.ى) ، ومع هذا فتدل كلها على معنى عام واحد هو اللين والميل والانجذاب .

فالأول من صبا إلى الشيء يصبو ، إذا مال قلبه إليه (٥) . والصبا أيضاً من الشوق . يقال منه تصابى ، وصبا يصبو ، أى مال إلى الجهل والفتوة ، وأصبته الجارية (٦) .

والثاني من طفّل الليل ، إذا أقبل ظلامه ، وتطفيل الشمس : ميلها للغروب ، والطَّفَل بالتحريك : بعد العصر إذا طفلت الشمس للغروب ، يقال : أتيته طَفَلاً (٧) ، ولذلك قالوا طفيلى للذى يدخل وليمة لم يُدْع إليها ، وقد تطفل وذلك أنه يميل إلى الطعام .

والثالث من الغُلْمة وهي اللين وضعف العصمة .

والرابع جارية : فاعلة من جرى الماء وغيره ، ألا ترى أنهم يقولون : إنها غضّة بضّة

(١) الخصائص ١١٨/٢ .
(٢) انظر مثلا الصحاح ٧٤٢/١ .
(٣) انظر مثلا المقاييس ٣٢٠/٣ .
(٤) الصحاح ٤٩٦/٢ .
(٥) المقاييس ٣٣٢/٣ .
(٦) الصحاح ٧٠٤/١ .
(٧) تهذيب اللغة ٣٤٩/١٣ .

رطبة ، والمعنى الجامع لهذا كله كما ذكر ابن جنى « أن الطفل والصبى والغلام والجارية ليست لهم عصمة الشيوخ ولا جسأة الكهول » (١) .

ومما ذكره قولهم : جمل ، وناقة ، ودِبِّيج (في قولهم : ما بالدار دِبِّيج) ، والوشاء (في قولهم : تناسل عليه الوشاء) . فهذه ألفاظ متباينة أُصولها إذ هي من (ج.م.ل) و (ن.و.ق) و (د.ب.ج) و (و.ش.ى) .

ولو رجعنا إلى المعاجم لوجدنا هذه الأُصول متقاربة في معانيها إذ تدور كلها حول التأنق والحسن والجمـــال .

فأما (ج م ل) فمنه الجمال وهو الحسن : ضد القبح (٢) ، و (جمل) فَعَل منـــه . قال الله تعالى : « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » (٣) .

وأما (ن و ق) فمنه تنوق في الأمر ، أى بالغ فيه وتأنق ، وهم يشبهون الشيء بما يستحسنونه ، والناقة عندهم من حسن أموالهم ، فهي (فَعَلة) من قولهم : تنوقت في الشيء ، إذا أحكمته وتخيرته (٤) .

وأما (د ب ج) فمنه الديباج معروف ، ودبّيج (فعّيل) منه ، وذلك أن الناس يتم على أيديهم الأُنس وطيب الديار ، ويكون بهم العمارة وحسن الآثار ، ولذلك قيل لهم ناس ، لأنه في الأصل أناس ، فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال ، فهو (فعال) من الأنس :

وأما (و ش ى) فمنه الوشى من الثياب معروف ، والوشاء (فَعال) منه ، وذلك أن المال يشى الأرض ويحسنها . ثم يقول ابن جنى : « وعلى ذلك قـــالوا : الغنم ، لأنه من الغنيمة ، كما قالو لها : الخيل ، لأنها (فَعْل) من الاختيال ، وكل ذلك مستحب .

أفلا ترى إلى تتالى هذه المعاني وتلاحظها ، وتقابلها وتناظرها ، وهي التنوق ، والجمال والأُنس ، والديباج ، والوشى ، والغنيمة ، والاختيال » .

ومن ذلك : الفضة واللجـــين . فهما كلمتان بمعنى واحـــد حيث يطلقان على المعدن

---

(١) الخصائص ٢/١١٩ .
(٢) انظر مثلا الصحاح والمقاييس ولسان العرب (ج م ل) .
(٣) الآية ٦ من سورة النحل .
(٤) الخصائص ٢/١٢١ .

المعروف . وإذا رجعنا – في المعاجم – إلى معنى الأصلين (ف ض ض) و (ل ج ن) ، نجد أنهما يتلاقيان ويؤدى أحدهما إلى الآخر .

أما الأصل (ف ض ض) فهـو يدل على تفريق وتجزئه (١) . من ذلك : فضضت الشيء ، إذا فرقته . وانفض القوم : تفرقوا ، قال الله سبحانه : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك (٢) » . والفضة سميت بـذلك لانفضاض أجـزائها وتفرقها في تراب معدنها ، وإن كانت فيما بعد قد تصفى وتسبك .

وأما الأصل الآخـر (ل ج ن) فمنه : تلجّن الشيء : تلـزّج . وتلجن رأسه ، إذا غسله فلم ينق وسخه . واللّجين : الخبط ، وهـو ما سقـط من الورق عند الخبط . واللُّجَين : الفضة . جـاء مصغراً مثل الثُّريّا والكميت . وإنما قيل للفضة لُجين ، لأنها مادامت في تراب معدنها فهي ملتزقة في التراب متلجنة به (٤) .

فقد ظهرت العلاقة واضحة بين الفضة واللجين في أصل وضعها رغم تباين أُصولهما .

ويشبه ذلك ما بين الذهب والتبر – وهما بمعنى واحد – من تشابه في أصل وضعهما رغم تفرق أُصولهما ، فالأول من (ذ ه ب) والثاني من (ت ب ر) .

فأما (ذهب) فمنه ذهاب الشيء : مضيه أو مروره ، وقد يكون فيه معنى الهلاك . ومنه الذهب ، لأنه مادام كذلك غير مصفى فهو كالذاهب ، لأن ما فيه من التراب – كما يقول ابن جنى – « كالمستهلك له ، أو لأنه لما قل في الدنيا فلم يوجد إلا عزيزاً صار كأنه مفقود ذاهب ، ألا ترى أن الشيء إذا قل قارب الانتفاء . . . فكذلك لما قل هذا الجوهر في الدنيا أخذوا له اسماً من الذهاب الذى هو الهلاك » (٥) .

وأما (ت ب ر) فمنه : التبار : الهلاك . وتبر الله عمل الكافر ، أى أهلكه وأبطله ، قال الله تعالى : « إن هؤلاء مُتَبّرٌ ما هم فيـه وباطل ما كانوا يعملون» (٦) ، أى مُكَسّر مهلك . والتبر : ما كان من الذهب غير مضروب : وسموه بذلك لأنه (فِعْلٌ) من التبار . ولا يقال له تبر حتى يكون في تراب معدنه أو مكسوراً . ويؤكد ابن جنى ما سبق حين يستدل بألفاظ أخرى فيقول : « ويدلك على أنهم قد تصوروا هذا الموضع من امتزاجه

(١) انظر المقاييس (فض) ٤/٤٤٠ .
(٢) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .
(٣) الصحاح ٢/٤٣٤ .
(٤) الخصائص ٢/١٢٣ .
(٥) الخصائص ٢/١٢٤ .
(٦) الآية ١٣٩ من سورة الأعراف .

بتراب معدنه أنهم إذا صفّوْه وهذبوه أخذوا له اسما من ذلك المعنى ، فقالوا له : الخلاص ، والإبريز ، والعقيان . فالخلاص : فعال من تخلص ، والإبريز : إفعيل من برز يبرز . والعقيان : فعلان من عقى الصبي يعقى وهو أول ما ينجيه (١) عند سقوطه من بطـــن أمه قبل أن يأكل ، وهو العقى . فقيل ذلك لبروزه ، كما قيل له البراز » (٢) .

ثم يعقب ابن جنى على ذلك مؤكداً نظريته وأهميتها في الربط بين المعاني الأصلية لتلك الألفاظ التي قد يظن ترادفها بقوله :

« فالتأني والتلطف في جمع هذه الأشياء وضمها وملاءمة ذات بينها هو خاص اللغة وسرها وطلاوتها الرائقة وجوهرها ، فأما حفظها ساذجة ، وقمشها محطوبة هرجة فنعوذ بالله منه » (٣) .

وفي تعليقات ابن جنى على هذه النظرية ما يدل على شدة إعجابه بها ، وحرصه على حث الباحثين على دراستها وتكملتها وتتبعها في معاني الألفاظ في أصل وضعها ، فذلك يوقفنا على كثير من أسرار هذه اللغة العظيمة ، كما نبه إلى أن مجال البحث فيها واسع جداً قد لا يكفيه ألف ورقة إلا على اختصار ، يقول :

« فهذا ونحوه من خصائص هذه اللغة الشريفة اللطيفة . وإنما يسمع الناس هذه الألفاظ فتكون الفائدة عندهم منها إنما هي علم معنياتها . فأما كيف ، ومن أين فهو ما نحن عليه » (٤) ويقـــول :

« وقد هممت ــ غير دفعة ــ أن أنشىء في ذلك كتاباً أتقصى فيه أكثرها ، والوقت يضيق دونه ، ولعله لو خرج لما أقنعه ألف ورقة إلا على اختصار وإيماء . . . وهذا باب إنما يجمع بين بعضه وبعض من طريق المعاني مجردة من الألفاظ ، وليس كالاشتقاق الذى هو من لفظ واحد . . . فهو أشرف الصنعتين وأعلى المأخذين . فتفطن له ، وتأن لجمعه ، فإنه يؤنقك ويفيء عليك ، ويبسط ما تجعد من خاطرك ، ويريك من حكم البارى ــ عز اسمه ما تقف تحته ، وتسلم لعظم الصنعة فيه ، وما أودعته أحضانه ونواحيه » (٥) .

---

(١) أى يخرجه من دبره .
(٢) الخصائص ١٢٥/٢ .
(٣) القمش : جمع الشيء من هاهنا وهاهنا من غير تحر للجيد ، ومحطوبة : من حطبت الشيء ، أى جمعته . ويقال لمن يتكلم بالغث والسمين : حاطب ليل لانه لا يبصر ما يجمع في حبله . وهرجة : من الهرج وهو الاختلاط ، يقال هرج الرجل في حديثه : خلط .
(٤) الخصائص ١٢١/٢ .
(٥) الخصائص ١٣٣/٢ .

ولعل هذه النظرية توضح لنا منشأ كثير من الألفاظ المترادفة في لغتنا العربية ، وتسهم إلى حد كبير في القضاء على الخلاف الموجود بين علماء اللغة في نشأة هذه الألفاظ ووجودها في العربية ، فالمعروف لدى الباحثين أن علماء اللغة قديماً وحديثاً قد اختلفوا في ذلك وتفرقوا مذاهب شتى ، فمنهم من أنكر وقوع الترادف في اللغة العربية ، وزعم أن كل ما يظن من المترادفات فهو من المتباينات التي تتباين بالصفات ، كما في الإنسان والبشر ، فإن الأول موضوع لـــه باعتبار النسيان ، أو باعتبار أنـــه يؤنس ، والثاني باعتبار أنه بادى البشرة وكذا الخندريس والعقار ، فإن الأول باعتبار العتق ، والثاني باعتبار عقر الدن لشدتها ، وتكلف لأكثر المترادفات بمثل هذا المقال العجيب (١) .

ومن علماء اللغة من ذهب إلى وجود الألفاظ المترادفة بكثرة في العربية ، ويرى بعضهم أن من جعلها مترادفة ينظر إلى إتحاد دلالتها على الذات ، ومن يمنع ينظر إلى اختصاص بعضها بمزيد معنى ، فهي تشبه المترادفة في الذات والمتباينة في الصفات » (٢) .

ويشترط بعضهم شروطاً لوقوع الترادف في اللغة ، وبعضهم لا يرى ضرورة هذه الشروط . وهكذا نجد مذاهب كثيرة واتجاهات مختلفة في وجود هذا النوع من الألفاظ في لغتنا العربية .

ولكن هذه النظرية قد تجعل من السهل إرجاع كثير من أُصول الألفاظ المترادفة إلى معان يتلاقي بعضها مع بعض ، مما يؤكد أن وجود الترادف في العربية ليس عبثاً في اللغة ، ولكنه نشأ نتيجة تقارب المعاني بعضها مع بعض في أصل الوضع ، ثم تطورت هذه المعاني حتى تلاقت وأصبحت تستعمل بمعنى واحد في الكثير من الاستعمالات ، فمعروف لدى الباحثين المحدثين أن المعاني لا تبقى على حال واحدة بل هي دائمة التغير ، وإن كان تغيرها بطيئاً ، فكما تتغير بعض الألفاظ ، كذلك تتغير بعض المعاني لظروف لغوية خاصة ، وكما تحافظ بعض الكلمات على أصواتها ، كذلك قد تحافظ بعض الكلمات على معانيها (٣) .

وعلى علماء العربية المحدثين إكمال ما بدأه ابن جنى في هذه النظرية ، ومواصلة البحث عن هذه الألفاظ واستعمالاتها في أصل وضع اللغة وتطورها حتى وصلت إلى ما هي عليه

(١) المزهر للسيوطى ٤٠٣/١ .
(٢) المرجع الســابق .
(٣) انظر « في اللهجات العربية » د. ابراهيم أنيس ص ١٩٥ .

الآن من مساواة في الدلالة ، وهذا مبحث مهم في اللغة ، حيث يوضح لنا العلاقة بين الألفاظ في نشأتها وتطورها ، وهذا ما نهدف إليه من دراستنا لفقه اللغة العربية بوجه عام ، وفي وضع المعاجم العربية الحديثة بوجه خاص .

٢ – ونظرية أخرى في العلاقة بين اللفظ والمعنى تسمى : « مناسبة الألفاظ للمعـــاني » .

وقد نبه إلى هذه النظرية من علماء العرب الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه وغيرهما من علماء اللغة الأقدمين ، وأكمل أصولها ابن جنى .

وعبارة الخليل في ذلك : « كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً ، فقالوا : صرّ ، وتوهموا في صوت البازى تقطيعاً ، فقالوا : صرصر » (١) .

ويقول سيبويه في الكتاب : « ومن المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني قولك : النّزَوَان والنقزان والقفزان ، وإنما هذه الأشياء في زعزعة البدن واهتزازه في ارتفاع . ومثله العسلان والرتكان . . . ومثل هذا الغليان لأنه زعزعة وتحرك . ومثله الغثيان ، لأنه تجيش نفسه وتثور ، ومثله الخطران واللمعان ، لأن هذا اضطراب وتحرك ، ومثل ذلك اللهبان واللهجان لأنه تحرك الحر وتثوره ، فإنما هو بمنزلة الغليان » (٢) .

وقد كان أمراً عادياً أن تقرأ هذه العبارات دون أن تحدث أثراً كبيراً أو تؤدى إلى إيجاد نظرية عامة في اللغة . ولكن ابن جنى حين قرأها بتأمل وإمعان نظر فهم منها الكثير ، وأضاف إليها الكثير أيضاً ليبنى على ذلك نظريته اللغوية في مناسبة الألفاظ لمعانيها . وكان متواضعاً – تواضع العلماء – حين أرجع الفضل إلى من سبقه من العلماء في الإ شارة إلى هذه النظرية ، فذكر في أول حديثه عن هذا الباب أن الذى نبه على ذلك كله إنما هو الخليل وسيبويه ، وأن الجماعة تلقته بالقبول له والاعتراف بصحته . ثم يقول في موضع آخر منه : « فهذا على سمت الصنعة التي تقدمت في رأى الخليل وسيبويه ، إلا أن هذه أغمض من تلك غير أنها وإن كانت كذلك فهي منقولة عنها ومعقودة عليها » (٣) . ثم يؤكد ذلك مـــرة أخرى بقوله أثناء الحديث عن هذا الباب : « ومن وجد مقالاً قال به وإن لم يسبق إليه غيره فكيف به إذا تبع العلماء فيه ، وتلاهم على تمثيل معانيه » (٤) .

(١) انظر الخصائص لابن جنى ١٥٢/٢ .
(٢) الكتاب لسيبويه ٢١٨/٢ .
(٣) الخصائص ١٥٤/٢ .
(٤) الخصائص ١٥٥/٢ .

ولكننا نتساءل : ما الذى أضافه ابن جنى على كلام الخليل وسيبويه ؟

إنه – في الواقع – لم يكتف بإضافة بعض الأمثلة التي توالت فيها الحركات قياساً على ما ذكر ، كما فعل السيوطى في المزهر مثلاً (١) ، ولكنه أضاف عدة مسائل يمكن أن يجعل منها أُصولا يقاس عليها ، وهي مبنية كلها على ما فهمه وتحقق لديه من أن هناك صلة ثابتة بين اللفظ والمعنى . وهو بهذا قد استطاع أن يكون نظرية جديدة في اللغة هي التي سماها : « امساس الألفاظ أشباه المعاني » أى (مناسبة الألفاظ للمعاني) ، وجعل منها باباً في كتابه الخصائص (٢) ، وفي ذلك يقول معقباً على كلام الخليل وسيبويه ومبيناً – بتواضعه – فضلهما وأنه تابع لهما في ذلك :

« ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حذياه ومنهاج ما مثلاه ، وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير . . . ووجدت أيضاً الفعلى في المصادر والصفات إنما تأتي للسرعة . . . الخ » (٣) .

وخلاصة ما ذكره ابن جنى في هذا الموضوع أن المناسبة بين اللفظ والمعنى إنما تتحقق وتظهر في الأُمور الآتيـــة :

١ – الألفاظ التي تدل على معنى التكرار أو الحركة والاضطراب ، فإنها كثيراً ما تأتي فيها الحروف مكررة أو متوالية الحركات ليناسب اللفظ معناه .

وقد أشار إلى التكرار قوله حكاية عن الخليل السابق : كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا : صرّ ، وتوهموا في صوت البازى تقطيعاً فقالوا : صرصر .

وأشار إلى توالى الحركات ما حكاه عن سيبويه في المصادر التي جاءت على الفعلان من أنها تأتي للاضطراب والحركة نحو : النزوان والنقزان والقفزان (٤) . ومثـــله العسلان

---

(١) ذكر الســـيوطى أمثلة كثيرة حكاها عن بعض علماء اللغـــة قبل ابن جنى وبعده . ومن هؤلاء : الكسائى وابن السكيت وأبو عمرو الشيبانى والأصمعى وابن دريد والفارابى والثعالبى . انظر المزهر ٥١/١ وما بعدها .

(٢) الخصائص ١٥٢/٢ .

(٣) المرجع السابق ١٥٣/٢ .

(٤) وكلها تدل على معنى الوثب والسرعة . انظر الصحاح في (نزا ، نقز ، قفز) .

والرتكان (١) ، ومثله الغليان ، لأنه زعزعة واضطراب ، ومثله الغثيان ، لأنه تجيش نفسه وتثور ، ومثله الخطران واللمعان لأن هذا اضطراب وتحرك . ومثل ذلك اللهبان والوهجان لأنه تحرك الحر وتثوره .

وقد أضاف ابن جنى إلى كلام الخليل – أو قاس عليه – المصادر الرباعية المضعفة فإنها تأتي للتكرير نحو الزعزعة ، والقلقلة ، والصلصلة ، والقعقعة ، والصعصعة ، والجرجرة ، والقرقرة (٢) . وأضاف إلى كلام سيبويه – أو قاس عليه – (الفَعَلَى) في المصادر والصفات فإنها تأتي للسرعة نحو : البشكى ، والجمزى ، والولقى (٣) . فقد جعلوا اللفظ المكرر للمعنى المكرر ، واللفظ الذى توالت حركاته للمعاني أو الأفعال التي توالت الحركات فيها .

٢ – ومما ظهرت فيه المناسبة واضحة بين اللفظ والمعنى تلك الأفعال التي تصدر بحروف زائدة لتدل على معان زائدة عن معنى الفعل الأصلى وخاصة معنى الطلب الدال عليه (الألف والسين والتاء) في نحو استسقى واستطعم واستوهب واستمنح واستخرج ، فالأفعال الأصلية في هذا : سقى وطعم ووهب ومنح وخرج ، وهي تدل على أحداث وقعت ، وليس فيها دلالة تدل على طلب لها ، وحينما صاحبتها تلك الحروف الزائدة أصبحت تدل على معنى زائد عن المعنى الأصلى وهو الطلب .

وقد لاحظ ابن جنى في ذلك أمرين :

الأمر الأول هو أنه لما زادت الحروف في هذه الأفعال زاد المعنى الذى تدل عليه هذه الأفعال ، ولعل هذا يوافق ما قال به علماء اللغة الأقدمين من أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى .

والأمر الثاني هو وضع هذه الحروف الزائدة وموقعها من الكلمة فإنها تجىء في أولها ، وفي ذلك أيضاً مناسبة بين اللفظ ومعناه ، فإن المعنى الزائد بسبب زيادة هذه الحروف في أول

---

(١) العسلان : الخبب ، يقال عسل الذئب أو الانسان عسلانا ، اذا أعنق وأسرع ، وعسل الرمح عسلانا : اهتز واضطرب . ورتكان البعير : مقاربة خطوه في رملانه (أى هرولته) .

(٢) صلصلة اللجام : صوته اذا ضوعف . والقعقعة : حكاية صوت السلاح ونحوه . والصعصعة : التفرق . والجرجرة : صوت يردده البعير في حنجرته . والقرقرة : نوع من الضحك ، وهى الهدير أيضا .

(٣) ناقة بشكى : خفيفة المشى والروح ، وحمار جمزى أى سريع ، وناقة ولقى : سريعة .

الكلمة إنما يجيء أيضاً متقدماً على المعنى الأصلي ، وفي ذلك يقول ابن جنى : « . . . فجاءت الهمزة والسين والتاء زوائد ، ثم وردت بعدها الأُصول : الفاء ، والعين ، واللام . فهذا من اللفظ وفق المعنى الموجود هناك . وذلك أن الطلب للفعل والتماسه والسعى فيه والتأتي لوقوعه تقدمه ، ثم وقعت الإجابة إليه ، فتبع الفعل السؤال فيه والتسبب لوقوعه . فكما تبعت أفعال الإجابة أفعال الطلب ، كذلك تبعت حروف الأصل الحروف الزائدة التي للالتماس والمسألة . وذلك نحو : استخرج واستوهب واستمنح واستعطى واستدني » (١) .

وبتواضع ابن جنى وأمانته العلمية يذكر أن الفكرة في أصلها ترجع إلى بعض من سبقه من العلماء فيقول في نفس الموضع : « فهذا على سمت الصنعة التي تقدمت في رأى الخليل وسيبويه ، إلا أن هذه أغمض من تلك ، غير أنها وإن كانت كذلك فإنها منقولة عنها ومعقودة عليها » .

وقاس ابن جنى على ما تقدم تكرير عين الفعل في نحو : قطّع وفتّح وغلّق ، فإنه يدل على تكرير المعنى أو تقويته كما في قوله تعالى : « وقطعن أيديهن » (٢) أى أكثرن من هذا الفعل ، وقوله تعالى : « وغلقت الأبواب » (٣) . وفي ذلك مناسبة بين اللفظ والمعنى . يوضح ذلك كلامه حين يقول : « فلما كانت الأفعال دليلة المعاني كرروا أقواها ، وجعاوه دليلاً على قوة المعنى المحدث به ، وهو تكرير الفعل ، كما جعاوا تقطيعه في نحو صرصر وحقحق (٤) دليلاً على تقطيعه . ولم يكونوا ليضعفوا الفاء ولا اللام لكراهية التضعيف في أول الكلمة . والاشفاق على الحرف المضعف أن يجيء في آخرها ، وهو مكان الحذف وموضع الإعلال ، وهم قد أرادوا تحصين الحرف الدال على قوة الفعل . فهذا أيضاً من مساوقة الصيغة للمعاني » (٥) .

٣ ــ وتظهر المناسبة واضحة فيما دل على الحدث من الألفاظ فلكل حدث لفظ يناسبه من ناحية القوة أو الضعف ، فيكون اللفظ قوياً إذا كان دالاً على حدث قوى ، ويكون

---

(١) الخصائص ٢/١٥٤ .
(٢) الآية ٣١ من سورة يوسف .
(٣) الآية ٢٣ من سورة يوسف .
(٤) الحقحقة : أرفع السير وأتعبه للظهر . ويقال شر السير الحقحقة .
(٥) الخصائص ٢/١٥٥ .

ضعيفاً إذا دل على حدث ضعيف . وتوضيح ذلك أن الأحداث كما تكون قوية وضعيفة ، توصف الألفاظ أو الحروف بالقوة أو الضعف كذلك . وقد وضع علماء الأصوات للحروف صفات (١) بعضها يدل على قوة الحرف ، والآخر يـدل على ضعفه . فمن أهم صفات القوة للحرف خمسة : الجهر ، والشدة ، والاستعلاء ، والإطباق والإصمات . وعكسها من صفات الضعف : الهمس ، والرخاوة والاستفال ، والانفتاح ، والذلاقة . ولابد لكل حرف من أن يوصف بواحدة من هذه الصفات أو تلك ، فإما مجهور أو مهموس وإما مستعل أو مستفل ، وهكذا .

وحين نوازن بين حرفين من ناحية القوة أو الضعف فإننا ننظر إلى أيهما اشتمل على صفات قوة أكثر من غيره فيكون أقوى . فمثلاً القاف والخاء : نجد القاف أكثر قوة من الخاء ، وذلك لأن القاف صوت اجتمع فيه من صفات القوة أربع ، هي الجهر (على رأى الأقدمين) والشدة والاستعلاء والإصمات . ومن صفات الضعف ثلاث هي الهمس والرخاوة والانفتاح .

ومن أجل ذلك قالوا إن (خَضم) أضعف في اللفظ من (قضم) فاستعملوا الخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب ، واستعملوا القضم للصلب اليابس نحو : « قضمت الدابة شعيرها » ونحو ذلك . وروى عن الكسائي : القضم للفرس والخضم للإنسان (٢) . وفي الخـبر : « قد يدرك الخضم بالقضم » (٣) أى قد يدرك الرخاء بالشدة ، واللين بالشظف .

ويوضح ذلك ابن جنى حين يقول : « فاختاروا الخاء لرخاوتها للرّطب ، والقاف لصلابتها لليابس ، حـذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث » (٤) . ويشبه هذا ما حكاه السيوطى عن الثعالبي في فقه اللغة : « يقال : خذفه بالحصى ... وقذفه بالحجارة » (٥)

أما حين نوازن بين الخاء والحاء فإننا نجد الخاء أقوى (لأنه ليس للحاء من صفات القوة

---

(١) انظر في ذلك مثلا : التجويد والأصوات للدكتور ابراهيم نجا ص ٧٢ وما بعدها ، والأصوات اللغوية للدكتور ابراهيم أنيس ص ٤٤ وما بعدها .

(٢) المزهر ١/٥١ .

(٣) ذكره ابن جنى في الخصائص ٢/١٥٧ .

(٤) الخصائص ٢/١٥٨ .

(٥) المزهر ١/٥٥ وانظر فقه اللغة وسر العربية ص ١٣٢ .

سوى صفة الإ صمات) . فكلمة النضخ مثلاً أقوى – لفظياً – من النضح ، ومن أجل ذلك استعملوا النضح لرش الماء وتسربه في ضعف وبطء ، والنضخ لشدة فورانه ، قال الله سبحانه وتعالى : « فيهما عينـــان نضاختان » (١) . وفي ذلك يقول ابن جنى : « فجعلوا الحاء – لرقتها– للماء الضعيف ، والخاء – لغلظها – لما هو أقوى منه » .

وقد ذكر ابن جنى – في الخصائص – أمثلة أخرى في مناسبة الألفاظ للمعاني موازناً بين بعض الحروف القوية وما يشبهها في المخرج من الحروف الضعيفة وخاصة الصاد والسين . « ومن ذلك قولهم : الوسيلة ، والوصيلة . والصاد – كما ترى – أقوى صوتاً من السين لما فيها من الاستعلاء ، والوصيلة أقوى معنى من الوسيلة ، وذلك أن التوسل ليست له عصمة الوصل والصلة ، بل الصلة أصلها من اتصال الشيء بالشيء ومماسته له ، وكونه في أكثر الأحوال بعضاً له ، كاتصال الأعضاء بالإ نسان ، وهي أبعاضه ، ونحو ذلك ، والتوسل معنى يضعف ويصغر أن يكون المتوسل جزءاً أو كالجزء من المتوسل إليه . وهذا واضح . فجعلوا الصاد لقوتها للمعنى الأقوى ، والسين لضعفها ، للمعنى الأضعف » .

« ومن ذلك القسم والقصم . فالقصم أقوى فعلاً من القسم ، لأن القصم يكون معه الدق ، وقد يقسم بين الشيئين فلا ينكأ أحدهما ، فلذلك خصت بالأقوى الصاد وبالأضعف السين » . ومن المسلم به عند علماء الأصوات أن الصاد أقوى من السين لأنها من حروف الاستعلاء وليست السين منها بل هي حرف مستفل ، والصاد كذلك من حروف الإ طباق القوية ، وأما السين فحرف منفتح .

ولعل ما ذكره السيوطى في المزهر من أمثلة كثيرة لمناسبة الألفاظ للمعاني مما ذكر في كتب المتقدمين (٢) يرجع إلى هذا النوع . فقد نقل عن ابن دريد في الجمهرة قوله : « الأنيت أشد من الأنين ، والرنين أشد من الحنين » . ومن المعروف لدى علماء الأصوات أن التاء من حروف الشدة ، وأما النون فحرف متوسط بين الشدة والرخاوة ، وأيضا الراء من حروف الجهر ، وأما الحاء فحرف مهموس .

« وفي الإ بدال لابن السكيت : يقال : القبصة أصغر من القبضة . قال في الجمهرة :

---

(١) الآية ٦٦ من سورة الرحمن .
(٢) المزهر ٤٧/١ في المسألة العاشرة .

القبص : الأخذ بأطراف الأنامل ، والقبض : الأخذ بالكف كلها » وعند علماء الأصوات أن الصاد أضعف من الضـــاد .

« وفي الغريب المصنف عن أبي عمرو : هذا صوغ هذا ، إذا كان على قدره ، وهذا سوغ هذا ، إذا ولد بعد ذاك على أثره » و (صوغ) من الناحية الصوتية أقوى من (سوغ) ، لأن الصاد أقوى من السين .

« وقال الأصمعي : الهتْل من المطر أصغر من الهطْل » . والتاء أضعف من الطاء ، فالطاء من حروف الاستعلاء والإ طباق وليست التاء منها .

« وفي الجمهرة . . . الرفرفة – بالراء – : صوت أجنحة الطائر إذا حام ولم يبرح ، والزفزفة – بالزاى – : صوت حفيف الريح الشديدة الهبوب » . والراء أضعف من الزاى لأنها من حروف الذلاقة التي هي الخفة ، وأما الزاى فليست منها بل هي من حروف الإ صمات

ولقد أعجب السيوطى كثيراً بهذه الأمثلة وما فيها من المناسبة ، ومما حكاه قبل ذلك عن ابن جنى ، مما جعله يعلق على هذا الموضع ، فعلى الرغم من أن السيوطى يعتمد كثيراً في مؤلفاته على الجمع والنقل إلا أنه حين أغرم بهذا الموضع خالف منهجه فعلق عليه قائلا : « فانظر إلى بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها ، وكيف فاوتت العرب في هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة في المعنى ، فجعلت الحرف الأضعف منها والألين والأخفى والأسهل والأهمس لما هو أدني وأقل وأخف عملاً أو صوتاً ، وجعلت الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأنجهر لما هو أقوى عملاً وأعظم حساً . ومن ذلك المد والمط . فإن فعل المط أقوى ، لأنه مد وزيادة جذب ، فناسب الطاء التي هي أعلى من الدال » (١) .

ولم يكتف ابن جنى – في هذا الموضع – بالموازنة بين الأحداث من ناحية القوة أو الضعف وما يترتب على ذلك من قوة اللفظ الدال عليها أو ضعفه ، بل أضاف إلى ذلك ما لاحظه في ترتيب الحروف في الكلمة ، فإنهم يقدمون الحرف المناسب لأول الحدث فيضعونه أول اللفظ ، ويوسطون الحرف المناسب لأوسط الحدث . ويؤخرون ما يضاهي آخره ، وذلك – كما يقول – « سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود ، والغرض المطلوب».

ويأتي لذلك بأمثلة ، منها قولهم : بحث . فالباء صوت غليظ يشبه خفقة الكف على

(١) المرجع السابق .

الأرض ، والحاء لما فيها من بحة في الصوت تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض ، والثاء للنفث والبث للتراب .

« ومن ذلك قولهم : شد الحبل ونحوه ، فالشين بما فيها من التفشي تُشَبَّهُ بالصوت أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد ، ثم يليه إحكام الشد والجذب وتأريب العقد ، فيعبر عنه بالدال التي هي أقوى من الشين ، لاسيما وهي مدغمة . فهو أقوى لصنعتها ، وأدل على المعنى الذى أريد بها » (١) .

ومما يتصل بمناسبة اللفظ لمعناه ما لاحظه ابن جنى في بعض الألفاظ المشتملة على حرف الفاء إذا اقترنت بحروف معينة ، فإنها تدل على الضعف . يقول :

« ومن طريف ما مر بي . . . ازدحام الدال ، والتاء ، والطاء ، والراء ، واللام ، والنون ، إذا مازجتهن الفاء على التقديم والتأخير ، فأكثر أحوالها ومجموع معانيها أنها للوهن والضعف ونحوهما » (٢) وضرب لذلك أمثلة :

« من ذلك : الدالف للشيخ الضعيف ، والشيء التالف . . . والطنف لما أشرف خارجاً عن البناء ، وهو إلى الضعف ، لأنه ليست له قوة الراكب الأساس والأصل . . . والدنف : المريض . . . ومنه التُّرفة ، لأنها إلى اللين والضعف ، وعليه قالوا : الطرف ، لأن طرف الشيء أضعف من قلبه وأوسطه . . . ومنه الفرد ، لأن المنفرد إلى الضعف والهلاك ما هو . . . ومنه الفتور للضعف ، والرفت للكسر . . . والرديف ، لأنه ليس له تمكن الأول ومنه الطفل للصبي لضعفه » . فكل هذه كلمات ثلاثية دلت على الضعف وقد اشتمل كل منها على حرف الفاء واكتمل بحرفين من الحروف الستة السابقة .

وهكذا يبحث ابن جنى في أسرار هذه اللغة ليستخرج لنا منها الكثير في هذه النظرية ، ذاهباً إلى أن ذلك لا يمكن أن يجيء في العربية عن طريق المصادفة ، أو أن يكون شيئاً اتفق وأمراً واقعاً في صورة المقصود من غير أن يعتقد ، لأنه يرى أن في ذلك « حكم بإبطال ما دلت عليه الدلالة من حكمة العرب التي تشهد بها العقول ، وتتناصر إليها أغراض ذوى التحصيل ، فما ورد على وجه يقبله القياس وتقتاد إليه دواعى النظر والإ نصاف حمل عليها ،

(١) الخصائص ١٦٣/٢ .
(٢) الخصائص ١٦٦/٢ .

ونسبت الصنعة منه إليها ، وما تجاوز ذلك فخفى لم توعس النفس منه . . . وكان الأحرى أن يتهم الإنسان نظره ، ولا يخف إلى إدعاء النقض فيما قد ثبّت الله أطنابه ، وأحصف بالحكمة أسبابه » .

ويؤكد هذا المعنى مرة أخرى حين يقول : « فإن أنت رأيت شيئاً من ذلك لا ينقاد لك فيما رسمناه ، ولا يتابعك على ما أوردناه ، فأحد أمرين : إما أن تكون لم تنعم النظر فيه فيقعد بك فكرك عنه ، أو لأن لهذه اللغة أصولا وأوائل قد تخفى عنا وتقصر أسبابها دوننا — كما قال سيبويه — أو لأن الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر » (١) .

وابن جنى في هذه النظرية أقرب إلى الاعتدال من غيره من بعض علماء العربية المغالين في وجود المناسبة بين اللفظ والمعنى ، حيث يرى هؤلاء وعلى رأسهم عبّاد بن سليمان الصيمرى أن المناسبة بين اللفظ والمعنى ذاتية ، وكان هذا مذهبهم في نشأة اللغات بوجه عام ، وإن كان الجمهور من علماء اللغة لم يرتض هذا المذهب ، يوضح ذلك السيوطى حين يذكر أن أهل أصول الفقه نقلوا عن عباد رأيه في ذلك وهو « أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع . قال : وإلا لكان تخصيص الاسم المعين ترجيحاً من غير مرجح . وكان بعض من يرى رأيه يقول : إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها ، فسئل ما مسمى « أذغاغ » وهو بالفارسية الحجر ، فقال : أجد فيه يُبْساً شديداً ، وأراه الحجر .

« وأنكر الجمهور هذه المقالة ، وقال : لو ثبت ما قاله لاهتدى كل إنسان إلى كل لغة ، ولما صح وضع اللفظ للضدين كالقرء للحيض والطهر ، والجون للأبيض والأسود . وأجابوا عن دليله بأن التخصيص بإرادة الواضع المختار خصوصاً إذا قلنا : الواضع هو الله تعالى ، فإن ذلك كتخصيص وجود العـــالم دون وقت » (٢) .

ولقد تنبه السيوطى إلى ما في مذهب عباد — في المناسبة بين الألفاظ ومعانيها — من المبالغة والغلو فانتصر لرأى ابن جنى ، ذاهباً إلى أنه الرأى الذى ارتضاه علماء اللغة بوجه عام وعلماء العربية بوجه خاص . وفي هذا يقول موضحاً الفرق بين المذهبين :

« وأما أهل اللغة والعربية فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني ،

(١) الخصائص ٢/١٦٤ .
(٢) المزهر ١/٤٧ .

لكن الفرق بين مذهبهم ومذهب عباد أن عباداً يراها ذاتية موجبة ، بخلافهم . وهذا كما تقول المعتزلة بمراعاة الأصلح في أفعال الله تعالى وجوباً ، وأهل السنة لا يقولون بذلك ، مع قولهم إنه تعالى يفعل الأصلح ، لكن فضلاً منه ومنا لا وجوباً ، ولو شاء لم يفعله » (١) .

ونحن حين نوازن بين ما ذهب إليه ابن جنى ومن وافقه من علمائنا العرب القدامى — في المناسبة بين اللفظ والمعنى — وبين ما ذهب إليه العلماء في الدراسات اللغوية الحديثة فإننا نجد هؤلاء قد اتبعوا الأقدمين في كثير مما ذهبوا إليه ، فالمحدثون يرون أيضاً أن هناك — بلا شك — كثيراً من المجالات اللغوية التي يلحظ فيها وثوق الصلة بين الأصوات والمدلولات ويذكرون من ذلك : حين تكون أصوات الكلمة نتيجة تقليد مباشر لأصوات طبيعية صادرة عن الإنسان أو الحيوان أو الأشياء (٢) ، وهذا ما فطن إليه علماء العربية قديماً ، فقد ذكروا من أصوات الإنسان : القهقهة : حكاية قول الضاحك قَهْ قَهْ ، والنحنحة : حكاية قول المستأذن نح نح عند الاستئذان وغيره ، والعطعطة : حكاية صوت المجان إذا قالوا عند الغلبة عيط عيط . وذكروا من أصوات الحيوان : الصهيل : صوت الفرس في أكثر أحواله ، والضبح : صوت نَفَسه إذا عدا (وقد نطق به القرآن) ، والقبع : صوت يردده من منخره إلى حلقه إذا نفر من شيء أو كرهه ، والحمحمة : صوته إذا طلب العلف أو رأى صاحبه فاستأنس إليه . وقالوا في أصوات الماء ونحوه : الخرير : صوت الماء الجارى ، والعشيب : صوته تحت ورق أو قماش ، والفقيق : صوته إذا دخل في مضيق ، والبقبقة : صوت الجرة والكوز في الماء ، والقرقرة : حكاية صوت الآنية إذا استخرج منها الشراب ، والشخب : صوت اللبن عند الحلب . وقالوا في أصوات أخرى : هزيز الريح ، وهزيم الرعد وصرير الباب والقلم ، ونحو ذلك (٣) .

وقد ذكر المحدثون أن مما تظهر فيه المناسبة أيضاً حركات الإنسان وما ينشأ عنها من أصوات قد توحى بنوع من الكلمات وثيق الاتصال بين اللفظ ومداوله . وفي أمثلة ابن جنى وغيره من علماء العربية من ذلك الكثير مثل القضم والخضم ، والقطع والقطف والقطل والقطم .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) من أسرار اللغة ص ١٤٥ دكتور ابراهيم أنيس .

(٣) انظر فقه اللغة للثعالبي ص ١٤٠ .

كما ذكر المحدثون أيضاً أن طول الكلمة أو قصرها في الأصوات قد يوحى في اللغة بمعنى خاص (١) ، وهذا يوافق ما ذكرناه عن ابن جنى في نظريته هذه من تضعيف عين الفعـــل ، وزيادة بعض الحروف ، وما ذكرناه مروياً عن الأقدمين من أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى .

ومن الغريب أننا نجد كثيراً من الباحثين المحدثين من غير علماء العرب هم الذين تأثروا كثيراً بهذه النظرية واستفادوا منها في بحوثهم في الربط بين الألفاظ ومعانيها . فها هو ذا « جسبرسن » كان ينتصر لأصحاب المناسبة بين اللفظ والمعنى ، ويرى أن هذه المناسبة تظهر في كثير من النواحى التي لا تخرج في جملتها عمـــا ذكرناه في هذه النظرية (٢) ، ويرى كذلك ما أشار إليه ابن جنى في دراسته للعربية من أن « كلمات اللغات تزداد مع الأيام إيحاء للدلالات وتكتسب الأيام بمرور الزمن قدراً أكبر من تلك الرمزية . ويتنبأ من أجل ذلك بتلك النبوءة المتفائلة التي كان يحلم بها فلاسفة اليونان من أن يأتي اليوم الذى تصبح فيه الصلة بين الألفاظ ودلالتها أكثر وضوحاً وأوثق ربطاً ممـــا عرف أجدادنا القدماء » (٣) .

٣ — النظرية الثالثة من نظريات ابن جنى في دلالة الألفاظ . « تقارب الحروف لتقارب المعاني » .

وقد جعلها ضمن باب في كتابه الخصائص سماه : « باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني (٤) » وذكر أن هذا الباب قـــد غفل الناس عن البحث فيه ، وأنه لا يمكن الإحاطة به ، لأنه متشعب النواحى ، فهو على أربعة أضرب :

فمنه اقتراب الأصلين الثلاثيين ، مثـــل ضيّاط (٥) ، وضيطار ، فالأول من الأصل (ض ى ط) ، والثاني من الأصل (ض ط ر) .

ومنه اقتراب الأصلين ، ثلاثياً أحدهما ، ورباعياً صاحبه ، كحلق وحلقوم ، الأول من (ح ل ق) ، والثاني من (ح ل ق م) ، أو رباعياً أحدهما ، وخماسياً صاحبه ، كقولهم :

(١) انظر من أسرار اللغة ص ١٤٨ .
(٢) انظر دلالة الألفاظ د. أنيس ص ٧٠ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) الخصائص ٢/٤٥ .
(٥) الضياط : الرجل الغليظ . والضطار يقال لهذا وللئيم .

ضبغطى ، وضبغطرى(١) ، الأول من (ض ب غ ط) ، والثـاني من (ض ب غ ط ر) . وقد ذكر هذين النوعين في باب خاص سماه : « باب في تداخل الأصول الثلاثية والرباعية والخماسية » (٢) .

ومنه التقديم والتأخير في حروف الأصل الثلاثي ، ورجوع التقليبات إلى معنى عام يجمعها مثل : (ك ل م) ، (ك م ل) ، (م ك ل) ، (م ل ك) ، (ل ك م) ، (ل م ك) . والمستعمل منها أصول خمسة ، وأما (ل م ك) فمهمل ، والتقليبات المستعملة معناها الدلالة على القوة والشدة . وقد شرح ذلك أيضاً في باب خاص سماه : « باب في الاشتقاق الأكبر »(٣)

ومنه النوع الرابع الذى نحن بصدد الحديث عنه ، وهو تقارب الحروف لتقارب المعاني .

وربما يقصد ابن جنى من تقارب المعاني أن يرتبط أحدها بالآخر ويبنى عليه ، أو أن يكون هناك معنى عام يجمعها . وأما تقارب الحروف فقد يكون المقصود منه الاتفاق في مخارجها من أعضاء النطق أو في صفاتها من الجهر والهمس أو الشدة والرخاوة أو نحو ذلك من صفات الحروف ، وإن كان ابن جنى لم يذكر في أمثلته إلا الحروف المتقاربه في المخرج.

ومن يتأمل كلام ابن جنى وأمثلته في هذه النظرية يجد أنه يمكن تقسيم هذا التقارب اللفظى إلى أنواع أربعة (٤) :

الأول : التقارب بين كلمتين في حرف واحد .

الثاني : التقارب بين كلمتين في حرفين .

الثالث : التقارب بين كلمتين في الأحرف الثلاثة .

الرابع : التقارب بين أكثر من كلمتين .

وسوف نحاول — بعد رجوعنا إلى المعاجم — في أمثلة ابن جنى أن نؤكد العلاقة المعنوية بينها ، ثم نبين أوجه التقارب في حروفها ، حتى يتحقق لنا صدق هذه النظرية ، وحينئذ يمكن للباحثين من علماء اللغة المحدثين أن يقيسوا عليها كثيراً من الألفاظ في لغتنا العربية .

---

(١) كلمتان يفزع بهما الصبيان .

(٢) الخصائص ٤٤/٢ .

(٣) الخصائص ١٣٣/٢ ويحتاج في شرحه الى بحث خاص .

(٤) ممن أشار الى هذا التقسيم الدكتور ابراهيم نجا في : فقه اللغة العربية ص ٤١ .

فمن أمثلة النوع الأول :

أز – هز : فقد اختلفا في حرف واحد هو الأول من كل منهما ، ولكنهما متقاربان إذ كل منهما حرف حلق ، وقد تقاربت الكلمتان في اللفظ لتقارب معنييهما ، إذ يمكن أن يجمع الأصلان تحت معنى عام واحد ، هو الحركة أو التحريك . فالأز : الحركة الشديدة ، وأزت القدر إذا اشتد غليانها (١) ، وفي (هز) يقال : هززت السيف ، وأخذت فلاناً هِزَّةٌ ، إذا مدح فأخذته أريحيّة (٢) . وإن كان الأول يغلب عليه التحريك المعنوى . كما في قوله تعالى : « ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزّاً (٣) » أى تغريهم على المعاصى (٤) ، أو تزعجهم إزعاجاً (٥) ، والثاني يغلب عليه التحريك الحسى ، كما في قوله تعالى : « وهزى إليك بجزع النخلة تساقط عليك رُطباً جنياً (٦) » . وقد يتحدان في الاستعمال ، كقولهم : أزتنا الريح ، أى ساقتنا (٧) ويقال : هزته الريح (٨) أيضاً .

عسف – أسف : الكلمتان متقاربتان في المعنى ، ويمكن جمعهما تحت معنى عام واحد هو الهزال والضعف والقهر والغضب . كما أن الأسف يعسف النفس وينال منها . فالعسف أصله خبطك الطريق على غير هداية ، ثم كثر حتى قيل عسف فلان فلانا ، إذا ظلمه . والعسيف : الأجير ، وفي الحديث : « لا تقتلوا عسيفاً ولا أسيفاً » ، وفسروا الأسيف بالشيخ الفاني ، وقالوا : الأسيف : العبد (٩) . وقد يستعمل الأصلان في معنى واحد ، وحينئذ يمكن جعلها من باب الإبدال ، كما في تسميتهم التابع أسيفاً وعسيفاً ، فيقول بعض أهل اللغة إن الهمزة منقلبة عن عين (١٠) . ولما تقارب المعنيان تقارب اللفظان إذ الأول من كل منهما من حروف الحلق .

قرم – قلم : يجمع الأصلين معنى عام هو القطع أو الانتقاص من شيء ، فمن الأول قولهم : قرمت الشيء بأسناني ، إذا قطعته ، وما قطعته منه فهو قرامة . وفصيل قارم ، إذا تناول أطراف النبت بمقدم فيه قبل أن يستحكم (١١) . ومن الثاني : يقال : قلمت الظفر وقَلَّمْتهُ ، وفي هذا قطع . والقلامة : ما يسقط من الظفر إذا قلم ، ولذلك سمى القلم قلماً ، لأنه يقلم منه كما يقلم من الظفر (١٢) . فالمعنيان إذا متقاربان ، كما أن

(١) انظر الجمهرة ١٧/١ .
(٢) الجمهرة ٩٢/١ .
(٣) الآية ٨٣ من سورة مريم .
(٤) الصحاح ١٣/١ .
(٥) المقاييس ١٣/١ .
(٦) الآية ٢٥ من سورة مريم .
(٧) المقاييس ١٣/١ .
(٨) المقاييس ٩/٦ .
(٩) الجمهرة ٣٠/٣ .
(١٠) المقاييس ١٠٣/١ .
(١١) الجمهرة ٤٠٦/٢ .
(١٢) المقاييس ١٦/٥ .

اللفظين متقاربان فالراء واللام من مخرج واحد هو طرف اللسان مع اللثة العليا .

علم ــ عرم : أصلان متقاربان في المعنى إذ يدل كل منهما على أثر بالشيء يتميز به عن غيره ، فمن الأول : العلامة ، وهي معروفة . يقال : علمت على الشيء علامة ، والعلم : الراية ، والعلم : الجبل ، والعلم : الشق في الشفة العليا ، لأنه كالعلامة بالإنسان . ومن الثاني : يقال : شاة عرماء ، وكبش أعرم ، إذا كانت فيه نقط تخالف لونه ، وكذلك حية عرماء ، وهي الرقطاء بعينها (١) . ويقال : قطيع أعـــرم ، إذا كان فيه سوادوبياض ، وإذا وقع ذلك بأن أحد اللونين من صاحبه ، فكان كل واحد منهما علماً لصاحبه كما يقول ابن جنى (٢) ، بل إن ابن فارس لا يستبعد أن تكون الراء بـــدلا من اللام في مثل قولهم أفعى عرماء ، كأنهـــا علماء ، ويكون اللون كعلامة عليها (٣) . وأما التقارب اللفظى بين هذين الأصلين فلأن اللام والراء من مخرج واحد هو طرف اللسان مع اللثة العليا .

حمس ــ حبس : ذكرت المعاجم أن الحمس : التشدد في الأمر ، وحمس الشر ، إذا اشتد (٤) . كما يقـــال : حبست الشيء . ويلتمس ابن جنى للتقارب بينهما وجهاً هو أن الشيئين إذا حبس أحدهما صاحبه تمانعا وتعازّا ، فكان ذلك كالشر يقع بينهما ، ولعله في هذا قد ارتكب التكلف والغلو ليحقق نظريته . وأما التقارب اللفظى بين الأصلين فأمر واضح وهو أن الميم والباء حرفان شفويان .

علب ــ علم : كل منهما يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره ، وقد تقدم بيان ذلك في (ع ل م) ، أما (ع ل ب) فمنه علبْت الشيء ، إذا وسمته أو خدشته أو أثرت فيه ، والعلاب : وسم في طول العنق ، ومنه ناقة مُعَلَّبَة (٥) . وأما التقارب في اللفظ فالبـــاء أخت الميم .

قرد ــ قرت : قد يجمعهما معنى التجمع واللصوق . فالصوف القرد : المتلبد المتداخل بعضه في بعض من ذلك أخذ ، ويقال أقـــرد الرجل ، إذا لصق بالأرض من ذلك ، أوذل (٦)

(١) الجمهرة ٣٨٨/٢ .
(٢) الخصائص ١٤٧/٢ .
(٣) انظر المقاييس ٢٩٣/٤ .
(٤) الجمهرة ١٥٦/٢ .
(٥) الصحاح ١٤٥/٢ .
(٦) الجمهرة ٢٥٣/٢ .

كما يقال : قرت الدم ، إذا يبس بعضه على بعض (١) . والدال أخت التـــاء ، إذهما من مخرج واحد هو طرف اللسان مع أُصول الثنايا العليا .

علز – علص : الأصلان متقاربان معنى يجمعهما القلق والطيش ، فمن الأول : العلز : خفة وهلع يصيب الإ نسان (٢) والثاني أصل بنـــاء العلوص ، وهو داء يصيب الإ نسان في بطنه (٣) وقد يتفقان في الاستعمال ، فقد ذكرت المعاجم أن العلوز لغـــة في العلّوص ، وأن العلوص: وجـــع في البطن مثـــل العِلّوز (٤) . والزاى والصاد من مخرج واحد هو طرف اللسان مع أطراف الثنايا السفلى إضافة إلى كونهما من حروف الصفير .

غرب – غرف : ذكر ابن جنى أن التقارب بينهما من جهة أن الغرب : الدلو العظيمة ، ويغرف بها من الماء ، وربما يكون في هذا شيء من التكلف فليس الغرب خاصاً بالدلو وإنما غرب كل شيء : حـــده ، وغرب الدمع : مسيله ، وغارب كل شيء أعلاه (٥) وهكذا . والباء أخت الفاء إذ هما شفويان .

أما التقارب في حرفين بين كلمتين فمن أمثلته :

سحل – صهل : يجمعهامعنى الصوت ، إذ كل منهما يدل عليه فالسحيل والسّحال : الصوت الذى يدور في صدر الحمار ، ولذلك يسمى الحمار مِسْحلاً . ويقال للخطيب : انسحل بالكلام ، إذا جرى بـــه ، وركب مسحله ، إذا مضى في خطبته (٦) . وأما الثاني فمنه الصهيل : صوت الفرس والسين أخت الصاد فهما من مخرج واحد ، كما أن الحاء أخت الهاء فهما حرفان حلقيان .

سحل – زحر : يجمعهما أيضاً معنى الصوت ، وقد تقدم معنى (س ح ل) ، وأما (ز ح ر) فيقال منه : زحر يزحر زحيراً ، وهو صوت نفسه إذا تنفس بشدة ، وزحرت المرأة بولدها عنـــد الولادة (٧) . وهما متقاربان لفظاً أيضاً ، فالسين أخت الزاى فهما من حروف الصفير ومن مخرج واحد ، واللام أخت الراء كما تقدم .

---

(١) الصحاح ٢/٢٨٩ .
(٢) الجمهرة ٣/٧ .
(٣) الجمهرة ٣/٧٧ .
(٤) الصحاح ٢/١٤٧ .
(٥) الجمهرة ١/٢٦٩ .
(٦) الصحاح ١/٥٧٢ .
(٧) المقاييس ٣/٤٩ .

جلف ــ جرم : متفقان معنى إذ يجمعهما معنى القطع . فيقال من الأول : جلف الشيء ، إذا استأصله ، والجلفة : القطعة من الشيء ، والجلف : القطع (١) ، ومن الثاني : الجَرْم : القطع . ويقال لصرام النخل الجرام ، وجرمت صوف الشاة أى جززته (٢) . وأما تقاربهما في اللفظ فلأن اللام أخت الراء كما تقدم ، وكذلك الفاء أخت الميم إذ هما شفويان .

صال ــ سار : الأول من (ص و ل) ، والثاني من (س و ر) وهما متقاربان معنى ، إذ يجمعهما معنى العلو والارتفاع . فمن الأول : صال عليه . إذا استطال ، وصال عليه : وثب والمصاولة : المواثبة (٣) ، ورجل ذو صولة ، إذا كان ذا سلطان ، وصولة الخمر : سلطانها وحُمَيّاها (٤) . ومن الثاني : السورة : المنزلة ، والسورة من القرآن كأنها درجة أو منزلة يفضى منها إلى غيرها . ويقال : تَسَوّر الحائط : تسلقه ، وسورة السلطان سطوته واعتداؤه ، وسورة الشراب : وثوبه في الرأس ، وسورة الخمر : حدتها (٥) ، وأما التقارب في اللفظ فلأن الصاد أخت السين كما تقدم ، واللام كذلك أخت الراء .

وأما النوع الثالث وهو التقارب بين الكلمتين في حروفها الثلاثة فمن أمثلته :

عصر ــ أزل : متقاربان في المعنى ، إذ يجمعهما أحياناً معنى عام واحد هو الحبس والمنع ففى (أزل) : الأزل : الحبس . يقال : أزالوا مالهم يأزلونه ، إذا حبسوه عن المرعى من خوف (٦) . وفي (ع ص ر) يقال : اعتصرت ماله ، إذا استخرجته من يده . وفي الحديث : « يعتصر الوالد على ولده في ماله » أى يمنعه إياه ويحبسه عنه (٧) . وأما التقارب في اللفظ فلأن العين أخت الهمزة إذ هما حلقيان ، والصاد أخت الزاى ، والراء أخت اللام كما تقدم .

عصب ــ أزم : متقاربان في المعنى ، فيجمعهما في بعض الاستعمالات معنى الشدة ، ففى الأول (ع ص ب) يقال : رجل معصوب : صلب اللحم غير مسترخ ، ويوم عصيب : شديد في الشر خاصة ، والعصابة : العمامة ، وعصب الريق بفيه عصبا ، إذا يبس عليه من عطش أو غيره والمعصوب في لغة هذيل الجائع (٨) . ومن الثاني (أزم) : الأزمة : الشدة

---

(١) الجمهرة ١٠٦/٢ .
(٢) الصحاح ١٨٦/١ .
(٣) الصحاح ٧٤٧/١ .
(٤) الجمهرة ٢٣٩/٢ .
(٥) الصحاح ٦٢٧/١ والجمهرة ٣٣٩/٢ .
(٦) الصحاح ٢٣/١ .
(٧) الصحاح ١١٩/٢ .
(٨) الجمهرة ٢٩٧/١ .

والقحط ، يقال : أزم علينا الدهر ، أى اشتد وقل خـيره (١) . والهمزة أخت العين ، والزاى أخت الصاد ، كما أن الميم أخت الراء .

غدر – ختل : فيهما معنى الخداع وعدم الوفاء . فمن الأول : الغدر : نقض العهد وترك الوفاء به (٢) . ومن الثاني : يقال : ختله وخاتله ، أى خدعه . والتخاتل : التخادع (٣) والغين أخت الخاء فهما حلقيان ، والدال أخت التاء ، والراء أخت اللام كما تقدم .

زأر – سعل : يجمعهما معنى عام هو الصوت ، فكل منهما يدل عليه ، فالزئير : صوت الأسد ، وهو من (زأر) والأصل الثاني (س ع ل) يدل على صخب وعلو صوت(٤). ويقال منه : استسعلت المرأة : صارت سعلاة ، إذا صارت صخابة . ومنه السعال .

والزاى أخت السين ، والهمزة أخت العين ، والراء أخت اللام .

عدن – أطر : أصلان يدل كل منهما على الإقامة ، فمن الأول يقال : عدن بالمكان ، إذا أقام به ، ومنه اشتقاق المعدن ، وجنة عدن ، أى دار مقـام (٥) . ومن الثاني : تأطرت المرأة تأطّرا ، إذا أقامت في بيتها (٦) ، والتأطر : التمكث (٧) .

والعين أخت الهمزة ، كما أن الدال أخت الطاء ، فهما من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا ، والنون أخت الراء .

صهل – زأر : كل منهما يدل على صوت . فمن الأول : الصهيل : صوت الفرس ، ومن الثاني الزئير : صوت الأسد كما تقدم ، فتقاربا في المعنى . والصاد أخت الزاى ، والهاء أخت الهمزة ، واللام أخت الراء ، فتقاربا في اللفظ .

ومن أمثلة ابن جنى أيضاً في ذلك : « قالوا : كلف به ، كما قالوا : تقرب منه » والأول من (ك ل ف) والثاني من (ق ر ب) فالكاف أخت القاف لأنهما من أقصى اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى ، واللام أخت الراء ، والفاء أخت الباء .

---

(١) الصحاح ١/٢٤ .
(٢) المقاييس ٤/٤١٣ .
(٣) الصحاح ١/٣٣٠ .
(٤) المقاييس ٣/٧٣ .
(٥) الجمهرة ٢/٢٨٣ .
(٦) الصحاح ١/٣٣ .
(٧) المقاييس ١/١١٤ .

« وقالوا : تجعّد ، كما قالوا : شحط ، وذلك أن الشيء إذا تجعد وتقبض عن غيره شحط وبعد عنه . . . وذاك من تركيب (ج ع د) وهذا من تركيب (ش ح ط) فالجيم أخت الشين » لأنهما مخرج واحد هو وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى ، والحاء أخت العين لأنهما من الحلق ، والطاء أخت الدال .

« وقالوا : أفــل ، كما قالوا : غبر ، والغابر غائب أيضاً » وهما من (أ ف ل) و(غ ب ر) وبالتأمل في المعاجم العربية نجد تقارباً بينهما في المعنى ، كما أن بينهما تقارباً من الناحية اللفظية ، فالألف أخت الغين ، والفاء أخت الباء ، واللام أخت الراء .

وأما النوع الرابع وهو التقارب بين أكثر من كلمتين فقد أشار إليه ابن جنى أثناء حديثه عن الأنواع السابقة ، ومن أمثلته :

جبل ــ جبن ــ جبر : هذه أصول ثلاثة متقاربة في المعنى ، إذ يمكن جمعهما تحت معنى عام واحد هو الالتئام والتماسك . فمن الأول الذى هو (ج ب ل) : الجبل لشدته وقوته ، ويقال : أجبــل الشاعر ، إذا صعب عليه القول ، والجبلّ من الناس الجماعة (١) ، ومن الثاني الذى هو (ج ب ن) : جبن ، إذا استمسك وتوقف وتجمع ، ومنه الجبين جبين الإنسان ، له جبينــان يكتنفان جبهته (٢) . ومن الثالث الذى هو (ج ب ر) : جبرت العظم ونحوه ، أى قويته ، ومنه الجبارة : واحدة الجبائر ، وهو الخشب الذى يشد على العضو المكسور (٣) . والأصول الثلاثة متقاربة في اللفــظ فاللام والنون والراء أخوات ، إذ هما من مخرج واحد هو طرف اللسان مع اللثة العليا .

جرف ــ جلف ــ جنف : يدل ما ذكر في المعاجم من معاني هذه الأصول الثلاثة وجود تقارب بينهما في المعنى . فمن الأول : الجرف : الأخذ الكثير ، وجرفت الشيء : ذهبت به كله أو جله ، وجرفت الطين : كسحته . والجرف : أخذك الشيء عن وجه الأرض بالمجرفة . . . وفي الحديث : « ليس لابن آدم إلا بيت يكنه ، وثوب يواريه ، وجرف الخبز » أى كسره ، الواحدة جرفة ، ويروى باللام بــدل الراء (٤) . ومن الثاني : الجلف أجفى من الجرف وأشد استئصالاً ، والجلف مصدر جلفت ، أى قشرت : وجلف ظفره

(١) الجمهرة ٢١٢/١ .
(٢) الجمهرة ٢١٤/١ .
(٣) الجمهرة ٢٠٧/١ .
(٤) لسان العرب ٣٦٨/١٠ ، ٣٧٠ .

عن إصبعه : كشطه ، وجلف الطين عن رأس الدن : نزعه ، ، ورجل مجلّف قد جلفه الدهـــر ، وهو أيضاً مجرّف ، وزمان جالف وجارف(١) . ومن الثالث : الحنف وهو الميل . ويقول ابن جنى في التقارب بينه وبين الأصلين السابقين : « وإذا جلفت الشيء أو جرفته فقد أملتـــه عما كان عليه (٢) » . والأُصول الثلاثة متقاربة لفظاً ، فالحرف المختلف فيها وهو الراء أو اللام أو النون يخرج من طرف اللسان مع اللثة العليا كما تقدم .

على أنه يمكن الجمع بين أكثر من أصلين — مما تقدم من الأمثلة في الأنواع السابقة — ليدل على معان متقاربة يمكن إدراجها تحت معنى عام واحد ، فيمكن مثلاً الجمع بين الأُصول

سحل — صهل — زحر — زأر — سعل : فكلها تدل على صوت — وإن اختلف نوعه — كما تقدم . وهي من الناحية الصوتية متقاربة ، فالحرف الأول منها لا يخرج عن حروف الصفير التي تخرج كلها من طرف اللسان مع أطراف الثنايا السفلى ، والحرف الثاني لا يخرج عن حروف الحلق ، والثالث لا يخرج عن اللام أو الـــراء وهما أيضاً من مخرج واحد هو طرف اللسان مع اللثة العليا . وقد نبـــه ابن جنى أثناء عرضه لهذه الأمثلة أن ذلك موجود بكثرة في كلام العرب ، وحث الباحثين على تتبعه والبحث عنه فقال : « وهذا النحو من الصنعة موجود في أكثر الكلام وفرش اللغة ، وإنما بقى من يثيره ويبحث عن مكنونه ، بل من إذا أوضح له وكشفت عنده حقيقته طاع طبعه لها فوعاها وتقبلها ، وهيهات ، ذلك مطلباً ، وعز فيهم مذهبا » (٣) .

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن هذه النظرية تشبه — في نظرنا — إلى حد كبير ما ذهب إليـــه ابن جنى أيضاً من القول بنظرية أخرى هي ما سماه بالاشتقاق الكبير أو الأكبر (٤) من جهة أن كلا منهما يؤدى إلى القول بدلالة أكثر من مادة على معنى عام واحد ، ولكنها تختلف عما ذهب إليه عالم لغوى معاصر لابن جنى هو ابن فارس من القول بدوران المادة حول معنى واحد ، تلك النظرية التي استطاع هذا العالم اللغوى أن يطبقها على أكثر مواد اللغة حتى أنه بنى عليها معجماً لغوياً كاملاً هو « مقاييس اللغة » . ذلك أن نظرية ابن جنى هذه

(١) اللسان ١٠/٣٧٤ ، ٣٧٦ .
(٢) الخصائص ٢/١٤٧ .
(٣) الخصائص ٢/١٥٢ .
(٤) ذكره ابن جنى في الخصائص ٢/١٣٣ . ومعناه أن تأخذ أصـــلا من الاصول الثلاثية فاذا قلبته على أوجهه المستعملة فان هذه التقاليب الستة كلها تجتمع على معنى عام واحد ، وهذا يحتاج وحده الى بحث خاص به .

أصعب في تطبيقها من الأخرى ، وربما يرجع ذلك إلى أنها أعم منها ، فبينما تؤدى إلى دلالة مادتين أو أكثر على معنى عام واحد نرى ابن فارس يذهب إلى القول بأن المادة الواحدة تدل على معنى عام واحد ، وأحياناً على معنيين عامين، وأحياناً على أكثر من ذلك . فمثلاً في مادة (بسط) يقول :

« الباء والسين والطاء أصل واحد ، وهو امتداد الشيء في عِرَض أو غير عِرَض . فالبساط ما يُبسط ، والبَسَاط الأرض ، وهي البسيطة . يقال مكان بسيط وبَسَاط . . . ويد فلان بِسْطٌ ، إذا كان منفاقاً ، والبَسْطَةُ في كل شيء السَّعَة . وهو بسيط الجسم والباع والعلم . قال الله تعالى : « وزَادَهُ بَسْطَةً في العِلْم والجِسْم » (١) . ومن هذا الأصل وإليه يرجع ، قولهم للناقة التي خليت هي وولدها لا تمنع منه : بُسْط » (٢) فنراه يرجع هذه المعاني الجزئية إلى ذلك المعنى العام الذى ذكره في صدر المادة . وقد يرجعها إلى معنيين أو أكثر كما تقدم ، وكتاب المقاييس ملىء بذلك مما لا يحتمل هذا البحث أكثر من الإشارة إليه .

ومع هذا فإننا نرجع فنقول إن ما ذهب إليه ابن جنى – في نظريته هذه – من تقارب الألفاظ لتقارب المعاني قد يؤدى إلى القول بأن هذه المعاني في الأصل كانت عامة ثم تفرعت إلى معان جزئية ، وكانت قليلة ثم كثرت ، شأنها في ذلك شأن الألفاظ الدالة عليها . وهذا يوافق ما يذهب إليه علماء الدلالة في العصر الحديث من أن كثيراً من ألفاظ اللغات في العالم يصيبها ما يسمى بتخصيص الدلالة ، حيث يعمد الناس إلى بعض الدلالات العامة ويستعملونها استعمالاً خاصاً ، فإذا شاع هذا الاستعمال وذاع بين جمهور الناس تطورت دلالة اللفظ أيضاً من العموم إلى الخصوص (٣) .

٤ – ومما يتصل بدلالة الألفاظ في أبحاث ابن جنى ما ذكره في باب سماه : « باب فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية » (٤) .

ومؤدى هذه النظرية أن سياق الكلام وما يتصل به من ملابسات له أثر كبير في دلالة

---

(١) من الآية ٢٤٧ من سورة البقرة .
(٢) مقاييس اللغة ١ : ٢٤٧ .
(٣) انظر دلالة الألفاظ . دكتور ابراهيم أنيس ص ١٥٤ .
(٤) الخصائص ٣/٢٤٥ .

الكلمة وما تؤديه من معان ، وليس المعنى المعجمى وحده هو الذى يؤدى معرفته إلى فهم المقصود من الألفاظ ودلالتها . فقد لاحظ ابن جنى أن خلافاً كبيراً وقع بين أصحاب الفرق الإسلامية في تفسير بعض ألفاظ وردت في القرآن الكريم بحيث ينظر كل فريق إلى الآخر على أنه ضال أو منحرف أو ملحد ، وأن معرفة الدلالة الصحيحة للكلمات من الناحية اللغوية قد تهدى إلى الرأى الصحيح ، وكان هذا دافعاً قوياً إلى عقد هذا الباب الذى استهله بقوله : « إعلم أن هذا الباب من أشرف أبواب هذا الكتاب ، وأن الانتفاع به ليس إلى غاية ، ولا وراءه من نهاية ، وذلك أن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها ، وحاد عن الطريقة المثلى إليها ، فإنما استهواه واستخف حلمه ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة . . . » .

وقد ذكر ابن جنى أمثلة لهذه الألفاظ التي يؤدى الخطأ في تفسيرها من قبل أهل الشريعة إلى الضلال عن القصد ، وذلك استعمال بعض الجوارح ونسبتها لله جل جلاله في مثل قوله تعالى : « يا حسرتي عـلى ما فرطت في جنب الله » (١) ، « لمـا خلقت بيدى (٢) » ، « مما عملت أيدينا » (٣) ، « ويبقى وجـه ربـك » (٤) ، « ولتصنع على عينى » (٥) ، « والسموات مطويات بيمينه » (٦) ، « يوم يكشف عن ساق » (٧) .

وخلاصة ما ذكره الشهرستاني في كتابه « الملـل والنحل » (٨) عن هؤلاء أنهـم فرقتان : فمنهم من أوله على وجه يحتمل اللفظ ذلك ، ومنهم من توقف في التأويل ، وقال : عرفنا بمقتضى العقل أن الله تعالى ليس كمثله شيء ، فلا يشبه شيئاً من المخلوقات ولا يشبهه شيء منها ، وقطعنا بذلك ، إلا أنا لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه . وقد قال هؤلاء في مثل قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » : الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

ولعل توقف هؤلاء في تفسير هذه الآيات وتأويلها يرجع إلى أمرين كما ذكر الشهرستاني . أحدهما : المنع الوارد في التنزيل في قوله تعالى : « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل

(١) من الآية ٥٦ من سورة الزمر .
(٢) من الآية ٧٥ من سورة ص .
(٣) من الآية ٧١ من سورة يس .
(٤) الآية ٢٧ من سورة الرحمن .
(٥) من الآية ٣٩ من سورة طه .
(٦) من الآية ٦٧ من سورة الزمر .
(٧) من الآية ٤٢ من سورة ن .
(٨) انظر جـ١ ص ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .

من عند ربنا » (١) . والثاني : أن التأويل أمر مظنون بالاتفاق ، والقول في صفات البارى بالظن غير جائز ، فربما أولوا الآية — كما يقولون — على غير مراد البارى تعالى فوقعوا في الزيغ .

غير أن فرقة من الفرق الإسلامية وهم المشبهة يجرون ما ورد في التنزيل من الاستواء والوجه واليدين والجنب والمجيء والإتيان والفوقية وغير ذلك على ظاهره ، أى ما يفهم عند الإطلاق على الأجسام ، وكذلك ما ورد في الأخبار من الصورة وغيرها في قوله عليه السلام : « خلق آدم على صورة الرحمن » وقوله : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » وغير ذلك .

وقد بين ابن جنى أن الطريق إلى فهم ما تدل عليه هذه الألفاظ فهما صحيحاً هو إدراك أن هذه اللغة أكثرها جـار على المجاز ، وقلما يخرج الشيء منها على الحقيقة (٢) ، وأن خطاب الله تعالى للعرب الذين هم أعرف الناس بسعة مذاهبها بهذه الألفاظ قد جرى مجرى ما يألفونه ويعتادونه منها في كلامهم ، فقد كثر في خطابهم العادى مثل هذه الألفاظ ، مع أنها غير مقصودة بمعناها المعجمى أو معناها الحسى الظاهرى ، فورد في كلام العرب مثلاً يقولون : هذا الأمر يصغر في جنب هذا ، فليس معنى الجنب هنا معناه المعروف في المعاجم ، وإنما معنى هذه العبارة أنه أمر يصغر بالإضافة إليه وقرنه به ، وكذلك قوله تعالى : « يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله » أى فيما بينى وبين الله ، إذا أضفت تفريطى إلى أمره ونهيه إياى.

وكذلك ورد قولهم — على ما حكاه السيوطى في المزهر عن ابن برهان في كتابه الأُصول — : استوى فلان على متن الطريق ، ولا متن لها ، وفلان على جناح السفر ولا جناح للسفر ، وقامت الحرب على ساق . وهذه كلها مجازات ، ومنكر المجاز في اللغة جاحد للضرورة ، ومبطل محاسن لغة العرب (٣) .

فالمعنى المعجمى إذا قد يكون قاصراً عن المعنى المقصود ، ولذلك وجدنا بعض أصحاب المعاجم قد اتجه في تأليف معجمه إلى الاهتمام بذكر المجاز ، والنص على هذه المعاني

---

(١) من الآية ٧ من سورة آل عمران .

(٢) للعلماء العرب في اقرار المجـاز في اللغة وانكاره مذاهب كثيرة انظر المزهر للسيوطي جـ١ ص ٣٥٥ وما بعدها .

(٣) انظر المزهر جـ١ ص ٣٦٤ .

المقصودة ، ومن هؤلاء الزمخشرى صاحب « أساس البلاغة » فقد ذكر مثلاً أن مما يستعمل في مادة (جنب) عبارات كثيرة منها : فرطت في جنب الله . أى في جانبه وفي حقه ، ورجل لين الجانب : سهل المعاملة سلس (١) وهكذا .

بل إن المجاز عنده قد يغلب على المعاني الحقيقية . ففى مادة (يدى) التي منها يد الواردة كثيراً في القرآن الكريم منسوبة إلى الخالق جل وعلا ، أورد تعبيرات مجازية كثيرة منها مثلاً : لفلان عندى يد ، وأيديت عنده ويديت ، إذا أنعمت . ومالك عليه يد : ولاية . وهذا ملك يده ويمينه . وهذه الدار في يده ، ولا أفعله يد الدهر : أبداً والأمر بيد الله . ويارب هذه ناصيتى بيدك . وجلست بين يديه . وسقط في يده : ندم . والقوم على يد واحدة وساق واحدة ، إذا اجتمعوا على عداوته . وله يد عند الناس : جاه وقدْر (٢) .

وكذلك في (وجه) من المجاز في استعمالها : هذا وجه القوم ، وهؤلاء وجوه البلد ، وهو يبتغى بذلك وجه الله وهكذا .

وكلمة (يمين) المأخوذة من مادة (يمن) من المجاز في استعمالها : هو ملك يمينه ، وهو عنده باليمين : بمنزلة حسنة . وهكذا .

وكلمة (ساق) من مادة (سوق) من المجاز فيها : قامت الحرب على ساقها . وكشف الأمر عن ساقه ، وقام على ساق وعلى رجل في حاجتى ، إذا جد فيها .

فالعرب إذا قد استعملوا هذه الألفاظ وأرادوا منها غير ما وضعت له ، فإذا وردت في القرآن منسوبة إلى المولى جل وعلا فلماذا نحملها على ظاهرها مع أن المعنى المجازى هو الكثير في استعمالهـــا .

على أن علماء اللغة المحدثين لا يختلفون مع ابن جنى بل يوافقونه على هذا الرأى حين يذهبون إلى أن معنى الكلام لا يمكن فصله بأى حال عن السياق الذى يعرض فيه ، وأنه لا يمكن فهم الكلمة أو العبارة بدون الوقوف على ظروف الكلام وملابساته (٣) .

وأمر آخر في فهم دلالة الكلمة على الوجه الصحيح نبه إليه ابن جنى ، وهو معرفة معاني

---

(١) أساس البلاغة ص ١٠٢ .

(٢) ص ٧١١ ، ٧١٢ .

(٣) انظر مثلا دلالة الألفاظ د. ابراهيم انيس ص ٤٤ وما بعدها . وعلم اللغة (مقدمة للقارىء العربى) د. محمود السعران ص ١٨٨ ـ ١٩٠ ط سنة ١٩٦٢ .

صيغ الزوائد في العربية ، فمن المعروف مثلاً عند علماء الصرف أن صيغة (أفعل) تأتي في العربية لمعان كثيرة (١) منهـــا : التعدية ، وهي تصيير الفاعل بالهمزة مفعولا ، كأقمت زيداً ، وأقعدته ، وأقرأته . الأصل قام زيد ، وقعد ، وقرأ ، فلما دخلت عليه الهمزة صار زيد مقاماً مقعداً مقرءاً ، وأصبح الفعل متعدياً بعد أن كان لازماً . ومنها : مصادفة الشيء على صفة ، كأحمدت زيداً وأكرمته وأبخلته ، أى صادفته محموداً ، أو كريماً ، أو بخيلاً .

وعلى ذلك ففى قوله تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » (٢) إما أن يكون (أغفلنا) هنا ــ كمـــا قال ابن جنى ــ من باب أفعلت الشيء ، أى صادفته ووافقته كذلك ، وعلى هذا ورد الكثير من كلام العرب ، وقد حكى الكسائي قولهم : دخلت بلدة فأعمرتها . أى وجدتها عامرة ، ودخلت بلدة فأخربتها ، أى وجدتها خراباً ونحو ذلك . وإما أن يكون (أفعل) هنا للتعدية ، ويكون معنى أغفلنا قلبه منعنا وصددنا . وهنا يقول ابن جنى : « نعوذ بالله من ذلك ، فلو كان الأمر على ما ذهبوا إليه منه لوجب أن يكون العطف عليه بالفاء دون الواو ، وأن يقال : ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه » .

ووجهة نظر ابن جنى ــ كما يفهم من كلامه ــ أن اتباع الهوى ليس مسبباً عن الغفلة حتى تجيء الفاء ، وإنما هو معطوف عليها فهذا موضع الواو ، وفرق بينهما ، فإن المعنى على الواو : لا تطع من فعل كذا وفعل كذا .

ويعلق ابن جنى على اقتناعه بهذا التفسير قائلاً : « ولولا ما تعطيه العربية صاحبها من قوة النفس ودربة الفكر ، لكان هذا الموضع ونحوه مجوزاً عليه غير مأبوه له » .

وبعد أن يوجه اللوم إلى بعض العلماء الذين لم ينبهوا على هذا الموضع يقول : « ولله قطرب فإنه قد أحرز عندى أجراً عظيماً فيما صنعه من كتابه الصغير في الرد على الملحدين ، وعليه عقد أبو على ــ رحمه الله ــ كتابه في تفسير القرآن ، وإذا قرأته سقطت عنك الشبهة في ذلك الأمر » (٣) .

وما ذكره ابن جنى في هذه المسألة هو ما عناه بعض المحدثين (٤) بالدلالة الصرفية .

---

(١) أوصلها بعضهم الى عشرة معان انظر شـذا العرف للشيخ أحمد الحملاوى ص ٤١ ط ١٩٧٢ .
(٢) الآية ٢٨ من سورة الكهف .
(٣) الخصائص ٣/٢٥٥ .
(٤) انظر مثلا : دلالة الألفاظ ، وأنواع الدلالة ص ٤٤ .

فلابد في فهم الدلالة من معرفة بنية الكلمة وما يتصل بها ، إذ يترتب على اختلاف بنية الكلمة اختلاف في دلالتها .

هذه بعض نظريات ابن جنى في دلالة الألفاظ ، تلك التي أودعها كتابه الخصائص ، وهي تدل على أن علماء العربية الأقدمين قد سبقوا بها المحدثين من علماء الغرب الذين يدعون نسبتها إليهم ، وهم في الواقع قد أخذوها من علمائنا العرب القدامى .

ولقد كان ابن جنى حريصاً على حث الباحثين على مواصلة هذه البحوث وإكمال ما بدأه منها هو وغيره من علماء اللغة الأقدمين ، وما ينبغى لباحث في العربية أن يهمل هذه النظريات أو يقلل من شأنها ، أو يكتفى بقراءتها ، بل عليه بعد دراستها والتعمق في فهمها أن يحاول إكمالها بإضافة ما يمكنه إضافته إليها من الأمثلة .

ولا يعنى ذلك أن هؤلاء العلماء قد قصروا في شرح هذه النظريات اللغوية ، أو استكمالها ، أو الإضافة إليها ، ولكنهم تركوا لنا ذلك لأسباب قد يكون من أهمها الخوف من الملل عند قراءة هذه الموضوعات التي وضعوها في كتبهم على منهج لا يستقيم معه التطويل .

ويفهم هذا من مثل قول ابن جنى بعد شرحه لأول نظرية عرضناها في هذا البحث : « وقد هممت غير دفعة أن أنشىء في ذلك كتاباً أتقصى فيه أكثرها ، والوقت يضيق دونه ، ولعله لو خرج لما أقنعه ألف ورقة إلا على اختصار وإيمـــاء فتفطن له وتأن لجمعه . . . » (١) .

ويقول عقب الثانية : « الآن قد أنستك بمذاهب القوم فيما هذه حاله . ووقفتك على طريقه ، وأبديت لك عن مكنونه ، وبقى عليك أنت التنبيه لأمثاله ، وانعام الفحص عما هذه حاله ، فإنى إن زدت عن هذا مللت وأملت ، ولو شئت لكتبت من مثله أو راقا مئين فأبه له ولاطفه (٢) . . . » .

وفي نهاية الثالثة يقول : « وهذا النحو من الصنعة موجود في أكثر الكلام وفرش اللغة ، وإنما بقى من يثيره ويبحث عن مكنونه . . . » (٣) .

ويقول في آخر ما عرضناه من النظريات : « لو أقام إنسان على خدمة هذا العلم ستين سنة حتى لا يحظى منه إلا بهذا الموضع لما كان مغبونا فيه ولا منتقص الحظ منه ولا السعادة به (٤)

جزى الله ابن جنى وأمثاله عن هذه اللغة خير ما يجزى به العلماء العاملين .

---

(١) جـ ٢ ص ١٣٣ .
(٢) جـ ٢ ص ١٦٨ .
(٣) ١٥٢/٢ .
(٤) ٢٥٣/٣ .